الفصل الثالث

الشعر بين الإبداع والالتزام

مقابلة أجراها الأستاذ محمد عبدالله منور

(جريدة «المسلمون» - العددان: «٢٧٦-١٨ مايو»
و«٢٧٧ - ٢٥مايو» ١٩٩٠م)

إن إجراء حوار مع الدكتور/غازي عبدالرحمن القصيبي، ليس بالأمر السهل. وهذه الصعوبة التي أعنيها، لا تكمن في إمكانية الوصول إليه، أو مقابلته والتحدث معه فهذا - عند الدكتور غازي القصيبي - أمر لا يحتاج الإنسان فيه إلى نوع من الشفاعة، أو بذل جهد أو عناء.

ولكن الصعوبة التي عنيتها، تكمن في القدرة على مناقشته، وكيفية التحاور معه، والدخول إلى عالميه: الشعري، والفكري.

فهو لا يحمل عقلاً واحداً، بل تتحرك في رأسه عدة عقول ففيه: عقل الشاعر، وعقل الناقد، وفيه - كذلك - العقل المخطط للتنمية الصناعية، والتطور الاجتماعي.

وهو ذو وعي بما يدور حوله في العالم: من تقاطعات، وتداخلات، والتقاءات فكرية وحضارية.

وهو - كذلك - يبهرك بلغته الرصينة الفصيحة، وطرحه المنظم. ولقد كنت أظن أن حديثي معه، سيتخذ المنحى الأدبي، الذي وطنت نفسي على مناقشته حوله، ولكن شمولية الدكتور/غازي القصيبي الفكرية، وسعة همه - أخرجتانا من هذا المنحى، ليلتمس معاناة أمتنا الإسلامية، ليس في حياتها الأدبية فحسب، بل يعالج - كذلك - مشاكلها الفكرية والتنموية، والواقع المعيشي الذي يعانيه المسلمون في عصر القوة. فإلى حديثنا مع د. غازي القصيبي.

الشاعر، هل يمتاز عن غيره؟

❣ يرى بعض النقاد، أن هناك سراً خفياً في ذات الشاعر، يعطيه نوعاً من البصيرة بالوجود، هل هذه الخصوصية تجعل الشاعر متميزاً عن غيره من البشر؟

– جذور كلمة «شعر» اللغوية مستمدة – بالفعل – من الشعور، بمعنى أن «الشاعر» – في التصور اللغوي – هو الإنسان الذي يشعر بأشياء، لا يشعر بها غيره. وفي الحضارات القديمة كلها – وعلى سبيل المثال الإغريقية والعربية – كان هناك انطباع أن الشاعر «يحس» بأشياء، لا يعرفها الآخرون. وكان هناك تساؤل: من أين جاء هذا الإحساس للشاعر. وكان الجواب: إنه جاء من «القوى الخفية» من «حوريات الشعر» عند الإغريق، ومن «شياطين الشعر» عند العرب.

هكذا كانت النظرة القديمة للشاعر، أما اليوم، فنحن نعرف أنه لا توجد للشعر «شياطين»، أو «حوريات» بعبارة أخرى، نحن نعرف اليوم، أنه لا يوجد لدى الشاعر معرفة تميزه عن الآخرين.

❣ إذن ما الميزة التي تميز الشاعر عن غيره؟

- هذا سؤال وجيه جداً، وإجابتي عليه تغضب الشعراء والنقاد. لا توجد - في حقيقة الأمر - ميزة للشاعر على غيره من البشر. الفرق الوحيد بين الشاعر وغير الشاعر، أن الأول قد أعطي موهبة معينة، وهي القدرة على التعبير عن تجاربه بطريقة معينة، نسميها «الشعر».

في المجتمعات القديمة، كانت الكتابة معدومة، أو شبه معدومة، وكان الإيقاع اللفظي، هو الوسيلة الوحيدة للإبداع الفني، ومن هنا، اكتسب الشاعر هذه «الهالة» الخاصة، التي جعلت الناس يتصورون، أنه يختلف عن الآخرين.

عندما نتصور مجتمعاً لا يوجد فيه سوى الشعر، يمكننا أن نتصور المكانة الخاصة للشاعر، أما الآن، فقد زالت العوامل والظروف، التي أدت إلى نشوء المكانة الخاصة. في الوقت الحاضر، لا أرى ميزة للشاعر على القاص، أو الروائي، أو أي موهوب آخر.

❣ أقصد - من خلال الحديث عن الشاعر - معرفة ما إذا كان للفنان - بصفة عامة - نوع من التميز عن بقية البشر؟

- الفارق الوحيد - وأنا أفضل كلمة «فارق»، على كلمة «ميزة»

- أن الفنان أوتي موهبة التعبير الفني، لا أكثر من ذلك ولا أقل. إن القاص، أو الشاعر، أو الموسيقي، ليس - بالضرورة - أرق شعوراً، أو أكثر معرفة من التاجر، أو الطبيب، أو المقاول، أو الخباز. والفارق الوحيد - بينه وبين هؤلاء - أن لديه موهبة التعبير الفني، التي لا توجد لديهم. وهذه الموهبة لا تعني أن الفنان أذكى، أو أكثر حكمة من غيره، وبالتالي فلا يوجد ثمة مبرر، لأن نبحث عند الفنانين عن الحكمة، أو المعرفة، أو الدور القيادي المتميز.

ما هو دور الشاعر وما هي مهمته؟

❣ يجعل النقاد من مهمة الشاعر في العصر الحديث التغيير للأفضل.

– للنقاد أن يروا ما يشاؤون. أما أنا فلا أرى أن دور الشاعر هو تغيير المجتمع إلى الأفضل. لو استعرضنا الشعراء عبر التاريخ، لوجدنا قوس قزح متكاملاً من المواقف: هناك شعراء مجدوا الأوضاع القائمة، وهناك شعراء حاولوا تغييرها. هناك شعراء تطلعوا إلى الأمام، وهناك شعراء نظروا إلى الخلف. هناك شعراء شجعان، وهناك شعراء جبناء. هناك شعراء مؤمنون، وهناك شعراء كافرون.

لا يمكن أن أقول: إن الشعراء جمعتهم في الماضي، أو تجمعهم في الحاضر، رغبة ملحة في تغيير المجتمع وتطويره. كان أبو نواس

شاعراً من أعظم الشعراء - من الناحية الفنية - فهل كان يطمح إلى تغيير مجتمعه إلى الأفضل؟ القول بأن مهمة الشاعر هي دفع المجتمع إلى الأفضل تعميم لا تدعمه الحقائق.

❣ هل نخرج من مقولاتك هذه، بأن الشاعر مجرد مداح، أو أراجوز يسلي الناس؟

- هذا شيء قلته أنت، ولم أقله أنا، ولم يخطر لي ببال. ما قلته أنا، هو أن الشاعر ليس مصلحاً اجتماعياً، ولا يفترض فيه أن يكون مصلحاً اجتماعياً لمجرد كونه شاعراً. مهمة الشاعر الوحيدة، هي التعبير عن تجاربه شعراً.

الشاعر والكون

❣ إذن ماذا يريد الكون والوجود من الشاعر بصفة شمولية؟

– لا أستطيع الحديث باسم الكون أو الوجود، ولكني أستطيع الحديث عن نفسي كإنسان في هذا الكون. للمعرفة مصادر عديدة، ويجب البحث عن كل نوع في المعرفة من مصدره، فالأسئلة الكونية الكبرى: عن الكون، وخالقه، ومصيره، لا جواب لها إلا عند الدين، والبحث عنها في مصادر أخرى مجهود ضائع. والقوانين التي أودعها الله في الطبيعة، لا يمكن معرفتها إلا من العلم التجريبي. وإذا أحببت أن أتعمق في ماهية المعرفة وطبيعتها، فيجب عليّ أن ألجأ إلى الفلاسفة. وإذا أردت معرفة تاريخ البشر، فالجواب عند المؤرخين. إذن ماذا أجد عند الشعراء؟ والجواب: إنني أجد لديهم التعبير الفني الجميل، عن بعض التجارب الإنسانية، لا أكثر من

ذلك ولا أقل. وهكذا ترى أن الذين يبحثون لدى الشعراء عن جواب لأسئلة كونية، أو عن وسائل تطوير المجتمع، إنما يبعثرون أوقاتهم في مجهود عقيم.

الشاعر والمجتمع

❣ ولكن هناك شعراء قادوا التغييرات العظيمة

– أعطني اسم شاعر واحد قاد البشرية، أو شاعر واحد ترك نظريات غيرت مجرى التاريخ، وسأكتفي باسم شاعر واحد.

❣ المذاهب الأدبية في أوروبا، هي عبارة عن مذاهب فكرية، أو فلسفية في أصلها، لما تمثله الأدباء والشعراء في إبداعاتهم التي أثروا بها في المجتمع الأوروبي، وغيرت كثيراً من الخارطة الفكرية والاجتماعية هناك.

– قد يكون غيري أعرف مني، أما أنا فلا أعرف شاعراً واحداً – عربياً أو غير عربي – قاد إصلاحاً اجتماعياً، أو حركة فكرية، أو غيّر مسار التاريخ... لا أعرف شاعراً من هذا النوع.

❣ ولكنهم دعوا إلى هذا وبشروا به.

– لا، لم يدعوا كلهم، ولم يبشروا كلهم. بعض الشعراء دعا إلى الفضيلة، وبعضهم دعا إلى الرذيلة، بعض الشعراء حاولوا إصلاح مجتمعاتهم، وبعضهم رضوا بالأوضاع القائمة في المجتمع. الشاعر – في النهاية – بشر، ومواقف البشر متفاوتة.

❣ ورد من صفات الشعراء في الآية الكريمة، صفة «الانتصار من بعد الظلم».

– في عصر النبي ﷺ، كان هجاء الشعراء المؤمنين لكفار قريش «كنضح النيل» – كما يقول التعبير النبوي الخالد –. أما اليوم فقد تغير الوضع بالنسبة لتأثير الشعر، لم يُهْجَ أحد في التاريخ، بما هجونا به الصهاينة، ولو جمعنا ما كتبناه في هجائهم لخرجنا بملايين الأبيات الشعرية. هل رأيت صهيونياً واحداً قتله هذا الهجاء؟ هل رأيت دولة الصهاينة تهتز وتتمايل، مع وقع هذا الشعر؟

في ظروف اليوم، العلم هو السلاح، وليس الشعر. إن قيام المتعلم بتعليم أمي واحد يقربنا من تحرير فلسطين أضعافاً مضاعفة، أكثر من أية قصيدة نكتبها في هجاء إسرائيل. بناء مدرسة واحدة أخطر على الصهاينة من آلاف الدواوين المكتوبة في ذمهم. الحرب الفعالة هي التي تتم بأسلحة العصر الفعالة، ولو كان الشعر أحد الأسلحة الفتاكة في هذا الزمان لطلبت من الشعراء أن يكونوا طلائع المقاتلين.

في المجتمع العربي القديم، كان الشعر - بالفعل - سلاحاً رهيباً، قصيدة واحدة تقيم الدنيا وتقعدها، تخزي قبيلة، وترفع قبيلة. أما اليوم - في عصر الذرة والإلكترون والصواريخ والحاسب الآلي - فمفتاح الانتصار ليس في أيدي الشعراء، إنه في أيدي العلماء.

❣ هل معنى ذلك أن مهمة الشعر قد انتهت!؟

- ليس للشاعر مهمة تبدأ وتنتهي. على الشاعر أن يعبر عن مشاعره، بالطريقة الفنية الجميلة، التي نسميها «شعراً»؛ فهذا هو دوره الوحيد، إن كان لابد من كلمة «دور».

هدف الأدب وغايته

❣ هل تقولون بعدم هدفية الأدب في هذه الحياة وأن الفن والأدب، ما هما إلا مطلب استهلاكي للذات الإنسانية، تحتاج إليه كما تحتاج إلى الهواء والأكل واللبس فحسب ! أي أن الفن ضروري للإنسان، وليس هدفاً؟

– مرة أخرى، كل هذا تقوله أنت، ولم أقلّه أنا. إذا كان الدين هو الإنسان في حالة عبادة، والعلم هو الإنسان في حالة تجريب وبحث، والفلسفة هي الإنسان في حالة تأمل، فالشعر هو الإنسان في حالة غناء.

❣ إن نظرية الأدب الإسلامي، تقول: بهدفيه وغائية الفن عامة، والأدب والشعر خاصة، وإلا صار الفن والأدب والشعر عبثاً!

- لقد بدأنا نقترب من مأزق «التعريفات»، وكم من نقاش فقد مضمونه لأن كل طرف كان لديه تعريف لموضوع النقاش، يختلف عن تعريف الطرف الآخر ماذا تقصد بكلمة «هدف»؟ من وجهة نظري، الإسلام يرفض أدباً معيناً، وشعراً معيناً، ويبيح كل ما عدا ذلك.

وعندما قال الإمام الشافعي - رحمه الله - «الشعر كلام»: فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام»، فصّل وفرّع، وأبان الشعر المرفوض الذي يثلم الأعراض، أو يبالغ في المديح الممجوج. وأعتقد أن هذا هو المنطق السليم.

كل ما لم يرد نص بتحريمه، فهو مباح، وكل شعر غير مرفوض من الناحية الإسلامية، يجب أن يعد مباحاً بدوره. والتفرقة بين الأدب الإسلامي، وغير الإسلامي، تثير في نفسي بعض الخوف؛ فنحن جميعاً - بحمد الله - مسلمون، وأخشى أن نتفرق إلى مسلمين «إسلاميين»، ومسلمين «غير إسلاميين».

كل شعر لا يرفضه الإسلام صراحة، يجب أن يبقى ضمن دائرة الشعر المقبول. أنا أفهم التفرقة بين شعر مرفوض إسلامياً، وشعر غير مرفوض إسلامياً، ولكن الحديث عن شعر إسلامي، أو أدب إسلامي، يحيرني عندما يصف الشاعر وردة، أو غديراً، أو قمراً، هل نستبعد هذا من الشعر الإسلامي؟! هل نقول: إن الشعر الذي لا يخدم أغراضاً اجتماعية، أو سياسية، هو شعر غير إسلامي؟! هل نقصر الشعر على شعراء الجهاد، والدعوة، والإصلاح؟!

❣ نريد ملخصاً لرأيكم في الأدب الإسلامي.

- رأيي أن أي أدب لا يرفضه الإسلام، هو أدب مقبول، أما الأدب الذي يحتوي بصورة مباشرة - أو غير مباشرة - على كفر، أو شرك، أو مناقضة لمبادئ الإسلام، فهو أدب مرفوض.

الإسلام يحل الطيبات، ويحرم الخبائث. وهذا المبدأ العام يسري على الأدب، كما يسري على غيره من شؤون الدنيا. إذا كنا بصدد أدب «خبيث»، فهو أدب مرفوض، وإذا كنا بصدد أدب «طيب»، فهو أدب مقبول.

أعتقد أن هذا «المعيار» أوضح من معيار التصنيف إلى «أدب إسلامي»، و«أدب غير إسلامي». بعد تطبيق هذا المعيار يجب ألا نذهب أبعد من ذلك، فنحاول أن نضع طبقات للشعر، بحيث يكون بعضها أفضل من بعض. الشعر الحقيقي - في النهاية - هو محصلة مشاعر إنسانية حقيقية، وكيف نقسم هذه المشاعر إلى طبقات؟!

الشكل والمضمون

❣ من هذا التذييل الأخير، نفهم أننا قد نحكم بروعة العمل الفني وجماليته، من الناحية التعبيرية والفنية، وإن كان يتعارض مع الإسلام!.

- ألم يكن ذلك موقف رسول الله ﷺ من شعر أمية بن أبي الصلت؟ من حديث عمرو بن الشريد، أنه ﷺ استنشد أشعاره، وكان يستزيد منها. من الضروري ألا نخلط بين ميزان الإسلام، وميزان الفن. من صالح الإسلام، ومن صالح الفن، أن تبقى الموازين مستقلة. يمكن أن يوجد شعر رائع فنياً، ومرفوض إسلامياً، ولْنَعُدْ إلى أبي نواس مرة أخرى، ألم يكن في معظم شعره مبدعاً فنياً، ومرفوضاً إسلامياً؟ ألم يكن في شعر المتنبي ما نرفضه إسلامياً؟

مشكلة المصطلح

؟ ونحن ننادي بأدب إسلامي، لسنا ضد الفنية خاصة، أو الأدب عامة، وإنما هي تسمية فيها استرداد الهوية التي نحس بفقدها في هذا العصر، الذي كاد أن يضيع فيه المسلمون!

- لقد فقدنا هويتنا الإسلامية لأننا ضعفاء. وتاريخ الغزو الفكري يبين - بما لا يقبل الشك - أن أي حضارة سائدة، سرعان ما تفرض هويتها وبصماتها، على الحضارات الأقل منها، شئنا ذلك أم أبينا.

جاءت فترة كانت الحضارة الإغريقية فيها هي السائدة، ثم سادت الحضارة الرومانية، ثم سادت الحضارة الإسلامية، واليوم تسود الحضارة الغربية، وتطبع العالم كله ببصماتها.

واجب كل مؤمن - الأول - أن يخرج بنا من حالة الضعف، إلى

حالة القوة، في حدود طاقاته وإمكاناته وما يتاح له من موارد؛ ذلك أننا مادمنا ضعفاء متخلفين علمياً، تعبث الأمية بمجتمعاتنا، ويعيث الفقر في دولنا، ويعبث الضياع بنا - مادمنا بهذه الحالة، فإن ألفي قصيدة في تمجيد الإسلام وقيمه، لن تنقذنا من ورطتنا.

لقد بين الله - سبحانه وتعالى - السبيل، عندما أمرنا أن نعد لأعدائنا ما استطعنا من قوة. والقوة - في هذا العصر - هي قوة العلم. لا يمكن أن تكون قوياً عسكرياً ومتخلفاً علمياً. فإذا أردنا الخروج من ضعفنا وذلنا وهواننا، فيجب البحث عن مخرج من فقرنا وجهلنا.

الغزو الفكري هو قدر الضعفاء. أين المخرج؟ ليس المخرج في تقديس الغرب - كما فعل ويفعل بعضنا - المخرج في الفهم الصحيح للإسلام، الذي وعد المسلمين بالحياة الطيبة، في هذه الدنيا، وفي الآخرة، ووعدهم بأن يستخلفهم في الأرض.

من المآسي التي تدمي القلوب، أن أناساً لهم هذا الدين العظيم، يبقون متخلفين وضعفاء إنني حريص على الهوية الإسلامية، ولكنني أعرف أننا لن نستردها إلا إذا استرددنا القوة، والقوة سبيلها العلم. إن اختيار طائفة من الإنتاج الأدبي وتسميتها أدباً إسلامياً، هو تغيير في المظهر، لا الجوهر.

مصطلح الحداثة

❣ فيما يتعلق بمصطلح الحداثة، البعض يرى أنها مرتبطة بأفكار غربية، والبعض يرى أنها منهج فني، يمكن أن يستفاد منه في الشعر والأدب. فما رأيكم؟

– نعود هنا إلى موضوع «التعريف». كثير من المناقشات تفقد كل معانيها لأن المصطلحات غائمة، غير محددة في أذهان المتحاورين. كل طرف يتحدث عن الشيء نفسه، ولكن بمفهوم مختلف عن محاوره. هناك مؤلف فاضل ألف كتاباً عن: «الحداثة في ميزان الإسلام»، وكان من الواضح أن ذهنه يتجه إلى تعريف للحداثة، يعتبرها بمثابة دين آخر يختلف عن الإسلام. إذا بدأنا بمفهوم كهذا، فمن المنطقي أن ننتهي إلى نتائج كالنتائج التي انتهى إليها المؤلف الكريم. أما إذا كان لدينا تعريف مختلف، فسوف نصل – بالتأكيد – إلى نتائج مختلفة.

أنا أعتبر تعبير «الحداثة»، من أسوأ التعبيرات في السوق الثقافية لأنه تعبير غامض، يفهمه كل إنسان كما يريد. في العصر اليوناني، كانت هناك «حداثة» وفي عهد النهضة الأوروبية، كانت هناك «حداثة» وهناك - الآن - «حداثات» بعدد الحداثيين فعن أي حداثة أتحدث؟ إذا كانت «الحداثة» تعني عقيدة بديلة للإسلام، أو مناهضة له، فهي مرفوضة بالإجماع. إذا كانت «الحداثة» مجرد تعبير عن الرغبة في الوصول إلى تجديد في الأسلوب والألفاظ والتعبيرات، فلا أرى مبرراً لرفضها.

قبل سنوات كانت الكلمة المفضلة هي «المعاصرة»، وهي في نظري أفضل من «الحداثة»؛ لأن معناها أوضح، وهو أن يعيش الشاعر في عصره، ويكتب بلغة عصره، ويعبر عن هموم عصره، وليتنا نعود إلى هذا المصطلح، وننسى لفظة «الحداثة» التي عكرت مياه النقاش.

حداثة «أدونيس» - في رأيي- مناهضة للإسلام، ومنهج «أدونيس» الفكري - بأكمله - معادٍ للإسلام - كما يتبين لكل من يقرأ أطروحته عن «الثابت والمتغير». في رأي «أدونيس»، كل شيء يحاول تحطيم التراث الديني واللغوي، هو حداثة يصفق لها ويشجعها. لا توجد في ذهني أية صعوبة بالنسبة لأدونيس وطروحاته، فهي تخالف الإسلام جملة وتفصيلاً، ولكن: هل «حداثة» أدونيس هي «الحداثة» التي ينتسب إليها عدد كبير من شعرائنا وفنانينا الشباب؟ أشك في ذلك كثيراً، وأرى خطورة في إلصاق التهم بهم، على أساس حداثة توجد في ذهن أدونيس، لا في أذهانهم.

إن هـؤلاء الشعراء والكتاب - في تصوري - لا يقصدون بـ «الحداثة»، إلا المعاصرة - رغبتهم في أن يعبروا بأساليب جديدة، عن قضايا معاصرة - وهذا ليس هدفاً مشروعاً فحسب، بل إنه هدف مطلوب، إذا أريد لأي أدب أن يزدهر.

من هنا فإني أنصح كل من يريد أن يدلي بدلوه، ويفتي في موضوع «الحداثة»، أن يبدأ بتعريف «للحداثة». إذا قال إنسان: إن «الحداثة» التي في ذهنه، هي تلك التي تناقض الإسلام، فلن تجد أحداً يختلف حوله، أما إذا جاء شاعر وقال: إن الحداثة - بالنسبة له - تعني معايشة العصر، وتجديد دماء التعبير، فمن الظلم أن ندينه ونهاجمه. إن الحوار عن «الحداثة» - هذه الأيام - هو «حوار الصم» فكلٌ يغني على ليلاه، و«ليلى» هذا، غير «ليلى» ذاك.

الالتزام والأدب

يرى بعض النقاد أن الالتزام يحد من حرية الأديب وإبداعه، فالأدب الروسي قبل الواقعية الاشتراكية، أكثر توهجاً منه بعد الالتزام بالواقعية الاشتراكية، الذي أضعف الأدب. فما رأيكم في وضع الأدب الإسلامي في ظل الالتزام؟

– نعود مرة أخرى إلى مشكلة «التعريف». مفهومي الشخصي عندما أهاجم الالتزام – وكثيراً ما هاجمته – ينصرف إلى ذلك المنهج المفروض على الأديب، من قوى وعوامل خارجية عن إرادته، سواء كانت ضغوطاً سياسية، أو اجتماعية، أو مرتبطة بالتقاليد، وهذا هو «الالتزام» الذي تحدثت عنه في سؤالك، والذي أجبر عليه الأدباء والشعراء في ظل الماركسية. أما إذا كان الالتزام نابعاً بطريقة عفوية، وعن إيمان واقتناع من الأديب، فلماذا أسميه التزاماً؟!

إذا كنت مؤمناً بقيم الحق، والحب، والخير، والعدالة، فلابد أن تنعكس هذه القيم بشكل مباشر، أو غير مباشر، على إنتاجك. هل يمكن أن نتصور شاعراً مؤمناً يمجد الجبت والطاغوت؟ هل يمكن لشاعر مسلم أن يتغزل في الأصنام؟ ربما كان الصدق مع الذات هو ما يقصده الكثيرون، عندما يتحدثون عن الالتزام. وبهذا المعنى، فلا اعتراض لديّ على المفهوم.

الالتزام والأدب الإسلامي

نعود إلى سؤالك عن «الأدب الإسلامي». كما سبق أن أوضحت لك، فأنا أشعر بشيء من القلق، من أبعاد إطلاق صفة «الإسلامي»، على نوع معين من الأدب. أنا أفضل أن أتحدث عن الأدب الذي يرفضه الإسلام، وماعدا ذلك، أعتبره أدباً مقبولاً من وجهة النظر الإسلامية.

البعض يرى أن الشعر الإسلامي هو شعر الجهاد، وشعر الدعوة، ولكن شعر الجهاد وشعر الدعوة، لن يكون رائعاً ومؤثراً، ما لم يكن صادراً من معاناة صحيحة، وعن موهبة حقيقية.

إن إطلاق صفة «الإسلامي»، على أي نوع من أنواع الأدب، لا تضمن - في حد ذاتها - تفوق هذا النوع على سواه، ما لم يكن - بالفعل - متفوقاً ونابعاً من تجارب صادقة.

مصطلح «الأدب الإسلامي»

❣ ألا توافقون على مصطلح «الأدب الإسلامي»؟

– لو كان هناك معنى محدد متفق عليه للمصطلح، لكان بإمكاني أن أرفض، أو أقبل، وأنا أفضل – كما سبق أن قلت – أن أتحدث عن الأدب المرفوض إسلامياً، وأعتبر كل ما عداه أدباً مقبولاً. إنني أخشى مغبة استخدام تعبير «الأدب الإسلامي» لإبعاد كل شعر لا يوافق عليه مستعمل التعبير، من دائرة الشعر المقبول.

إذا كان المقصود بـ «الأدب الإسلامي» كل أدب لا يتناقض مع مبادئ الإسلام، فالتعبير مفهوم وواضح. أما إذا أتينا – ضمن دائرة الأدب المقبول – وصنفناه إلى «أدب إسلامي»، و«أدب غير إسلامي»، فسوف نقع في تناقضات وسوف يكون شأننا شأن من يصنف المباح إلى «مباح إسلامي»، و«مباح غير إسلامي».

هناك أشعار في وصف الوردة، ودموع الطفلة، وغروب الشمس وشروقها، وخفقان القلب، ونبضات الروح، فمن يضمن لي أنها لن تستبعد من دائرة «الأدب الإسلامي؟

من آراء «سيد قطب» - يرحمه الله - في كتابه العظيم: «في ظلال القرآن»، أن القرآن نبّه المشاعر والقلوب إلى روعة الطبيعة، وإلى مشاهدة تلك الروعة، التي أبدعتها قدرة الخالق العظيم، وتلك المشاهد الرائدة، هي المادة الخام للفن والأدب.

وذكر الأستاذ «سيد قطب» في «منهج الفن الإسلامي» أمثلة رائعة لما يكتبه شاعر أو أديب، عن نبتة صغيرة في الصحراء، أو عن مأساة من مآسي الحياة، ويبقى ضمن دائرة «الأدب الإسلامي».

إذا فهمنا التعبير بهذه الروح الواعية، فلا أرى ضيراً في استخدامه. أما إذا فهمناه بمعنى محصور ضيق، فسوف يكون بمثابة «التزام» مفروض، كالتزام «الواقعي» الذي لم يخدم قضية الأدب، أو الفن.

الانفتاح الثقافي

❣ كيف نستطيع أن نقرب الشقة بين الاحتفاظ بهويتنا الإسلامية الأدبية، وبين الانفتاح الثقافي على الغرب؟

– هذا السؤال وجيه ودقيق، ودعني أبدأ بالقول: إنني أكره كلمة «الانفتاح»؛ لأسباب عديدة، ليس هذا مجال تعدادها، ومنها: أنها لا تخلو من «بذاءة» في مدلولاتها. نحن لا نريد أن «ننفتح» على الغرب، أو نتركه «ينفتح» علينا، نريد أن نتعامل معه بيقظة وحذر، ونأخذ منه ما يفيدنا، وننبذ الباقي.

أكبر وهم يحيط بالحضارة الغربية، هو أن لها وجهاً واحداً: إما أن نتوجه إليه بالتقديس والعبادة، وإما أن نرفضه نهائياً ولقد قام بعضنا – بالفعل – بالتوجه إلى الحضارة الغربية بالعبادة أو ما يشبهها، ونحن المسلمين لا نعبد إلا الله. ويستوي – من وجهة نظر

التوحيد - من يعبد «اللات» و«العزى»، ومن يعبد جائزة «نوبل»، أو يعبد «السوربون». وقد ارتكب بعضنا الخطأ الأكبر المناقض، حيث رفض الحضارة الغربية كلية، وبصفة مطلقة.

وحقيقة الأمر، أن الحضارة الغربية لا تتكون من وجه واحد، ولكن من وجوه عديدة مختلفة، وبدلاً من موقف القبول المطلق، أو الرفض المطلق، يبدو لي أن المنطق يقتضي منا أن نقسم معطيات الحضارة الغربية إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: مرفوض بكلياته وحذافيره، ولا نقبل فيه أي أخذ ورد، أو أي مساومة، وهو القسم المتعلق بعقيدتنا. نحن لدينا موقف عقائدي من الخليقة والخالق - سبحانه وتعالى - يختلف كلياً عن موقف الحضارة الغربية، ومن هنا فإن واجبنا الحتمي، هو أن نرفض أي تصور غربي، يرتبط بالعقيدة والإيمان.

القسم الثاني: وهو مقبول ومطلوب، ويجب أن نتقبله وننقله، وأي دعوة تذهب إلى نقيض ذلك، هي دعوة خاطئة وضارة ضرراً قاتلاً - هذا القسم هو المتعلق بالتقنية والعلوم التجريبية، وفنون الإدارة والصناعة والزراعة. كل ما يتعلق بالطب والهندسة والألكترونيات والأحياء، لا يمكن أن يؤخذ - في الوقت الحاضر - إلا من مصادره الغربية، ودعوتنا إلى رفض الاقتباس هنا، هي - في حقيقتها، وبصرف النظر عن نوايا أصحابها الحسنة - دعوة لإبقائنا في تخلفنا إلى الأبد.

أما القسم الثالث: فيمكن أن نسميه «القسم المحايد»، لا هو مخالف لعقيدتنا، فنرفضه، ولا هو ضروري لتقدمنا، فيتحتم علينا قبوله. ومعظم التراث الغربي في الفنون والأدب، يندرج تحت هذا القسم.

الثوابت والمتغيرات

❣ ما هي الثوابت والمتغيرات، التي يجب ألا يفارقها الأديب؟ وما هي المتغيرات، التي هي محل أخذ ورد؟

– لا يوجد أي صعوبة في ذهني، للتفريق بين ما يثبت، وبين ما يمكن أن يتغير. الثوابت هي: أركان الإسلام، وما استنبطه الفقهاء من مقاصد الشريعة في الحفاظ على: الدين، والعقل، والمال، والعرض، والنفس، مما تجده مبسوطاً في مصادره، فيما عدا هذا – مما لا يتعارض مع هذه الثوابت – يمكن أن نقتبس، ونستفيد، وننقل، دون حرج.

الغموض والإبداع

❣ يرى البعض أن الغموض أساس الإبداع الأدبي، حتى تتعدد القراءات، ويجد عدد من المتلقين همه الذي يشغله في النص الإبداعي، وبعض النقاد يرى أن الغموض ضد الإبداع. فما رأيكم في إشكالية الغموض والإبداع؟

– أحب أن أفرق بين الغموض «المطلق»، والغموض «النسبي»، وأحب أن أضرب لك مثلاً على ذلك: أنا – مثلاً – عاجز عن فهم أي شعر فرنسي لأني أجهل الفرنسية، فغموض الشعر الفرنسي هو غموض نسبي لأن غيري يفهمه. الغموض الذي أرفضه، هو الغموض المطلق، الذي لا يفهمه القراء المتذوقون، وربما لا يفهمه حتى الذين كتبوه.

هذا ليس أدباً إنه يقع ضمن دائرة الطلاسم والألغاز أما الغموض «النسبي»، فلا اعتراض لديّ عليه، ما لا أفهمه أنا – لأني أفتقر إلى

خلفية ثقافية، أو نفسية، أو حضارية - قد يفهمه غيري، ووجود شيء من الغموض الموحي، أمر ضروري في كل أدب، وفي كل شعر بصفة أخص.

روح الشعر هي التشبيهات، والاستعارات، والكنايات، والإيماءات. وإذا زالت هذه، فماذا يبقى من أسلوب الشعر؟ مشكلتنا مع كثير مما يكتب هذه الأيام، أنه يقع ضمن دائرة الغموض المطلق؛ لذلك فهو أدب لا يستمتع به سوى الذين كتبوه، هذا إذا فهموه هم.

وضع اللغة العربية

❣ هل أنتم راضون عن وضع اللغة العربية؟ فهناك شكوى مستمرة من قواعد اللغة العربية، وهناك ضعف شامل في هذا المجال؟

– عندما أقرأ كتاباً مثل «فقه اللغة» للثعالبي، وأرى عشرات المصطلحات الدقيقة، في كل موضوع تحدث عنه أسلافنا، وأرى فقر لغتنا اليوم – أكاد أشرق بالدموع!

عندما قرر الصهاينة إنشاء دولة لهم، كانت اللغة العبرية لغة ميتة، بعثوها بعثاً من المعاجم، واستخدموا مفرداتها، حتى أصبحت لغة حية، أما نحن فقد ورثنا أكثر اللغات حياة، فبذلنا أعظم الجهد لقتلها!

هل من المعقول أن يتخرج الطالب من الجامعة، دون أن يفتح

المعجم مرة واحدة في حياته؟ أنا أعرف أناساً حصلوا على درجة الدكتوراه في الأدب، دون أن يكون في بيوتهم معجم واحد!

الخطوة الأولى - إذن - هي أن نضع في يد كل طالب قاموساً، يبدأ صغيراً مع المرحلة الابتدائية، ويتدرج مع تقدم الطالب، وأن تخصص - ضمن مواد اللغة العربية - «مادة المعجم»، ليكتشف كل طالب غنى لغته المذهل.

الخطوة الثانية، هي تغيير طريقة تدريس القواعد، ولا أقول: القواعد نفسها نحن ندرس المهم، مع غير المهم، فتختلط الأمور، ويختلط الحابل بالنابل.

لقد وجدت - من تجربتي الخاصة - أن بوسع المرء أن يكتب بلغة صحيحة وسليمة، إذا أتقن عدداً محدوداً من قواعد اللغة العربية: الفاعل، والمفعول به، والمبتدأ والخبر، و«إن» و«كان» وأخواتهما، والجار والمجرور. هذه القواعد تكفي لأن أكتب كتابة صحيحة بنسبة ٩٠٪. فماذا نفعل الآن في تدريس القواعد؟ ندرس المفعول معه، والمفعول من أجله، و«حتى» التي مات جدنا اللغوي العظيم وفي نفسه شيء منها فيضيع الطالب بين الأساسيات والفروع.

لو كنت المسؤول عن تدريس القواعد، لاكتفيت بهذه الأسس التي أشرت إليها، وخصصت سنة كاملة للمبتدأ والخبر - ولا شيء غيرهما! - وسنة أخرى للجار والمجرور، وسنة ثالثة لفاعل

والمفعول، وهكذا. افعل هذا، وأضمن لك أنك لن تجد - كما تجد اليوم - بين خريجي الجامعات، من يقول لك: «انقسم الناس إلى فئتان! أو «جاء الرجال المسلمين». حبذا لو جربت مدرسة واحدة - فقط - هذه التجربة، يقيني أنها ستجد النتائج رائعة.

هذا لا يعني - بطبيعة الحال - إهمال بقية القواعد. كل ما يعنيه، هو تحويل دراستها من «فرض عين» واجبة على الجميع، إلى «فرض كفاية» للمتخصصين في اللغة العربية.

الأدب والترجمة

❣ هل أفاد الأدب العربي من الترجمة، خاصة وأن لكم تجارب في هذا المجال؟

– يقال: إن الترجمة هي خيانة للأصل. وهذا القول صحيح إلى حد ما، ولكنه يصدق على ترجمة الشعر، أكثر من ترجمة النثر. بالنسبة للنثر، ترجمته الآن ميسورة، لمن يملك أسبابها وأدواتها، وليس ثَمّ كبير عناء في ترجمة الروايات، أو الأقاصيص، أو المقالات، سواء عن العربية أو إليها، وقد اطلعت على أعمال مترجمة من العربية إلى الإنجليزية، وبالعكس. وكان بعضها دقيقاً وقيماً، أما الشعر، فترجمته مشكلة عويصة؛ لأنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالموسيقى – وهذه كيف تترجمها؟ – كما أن فيه الكثير من الومضات والإيماءات، التي تفقد كل مدلولاتها، خارج نطاقها الحضاري.

إذا أردنا أن نخرج الأدب العربي، إلى النطاق العالمي، فيحسن بنا أن نبدأ باختيار النصوص القابلة للترجمة، والتي يقبلها الذوق غير العربي، دون كبير عناء. أحياناً نحن نفعل العكس، عندما «نبدأ» بتعليم الشعر الجاهلي للأجانب، الذين يودون أن يتعلموا اللغة العربية، أليس الطريق الأسلم، أن نبدأ بنصوص سهلة، ثم ننتهي بالشعر الجاهلي؟ إن ترجمة أعمال يمجها ذوق أولئك الذين تترجم لصالحهم، هو مضيعة للوقت والجهد والمال، وكذلك محاولة ترجمة أعمال لا تقبل الترجمة بطبيعتها.